٩٩/٥/٤/٢٨
مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٨٢١٠
التاريخ ١٥/ ٢/ ٢٠١٤

مجلّة الإنماء العربي للعلوم الانسانيّة

الفكر العربي

تصدر عن معهد الإنماء العربي في بيروت

العدد الثاني والثلاثون نيسان (ابريل) - حزيران (يونيو) ١٩٨٣ السّنة الخامسة

مستشارو التحرير

د. علي بن الأشهر د. إحسان عبّاس د. شكري فيصل
الشيخ عبدالله العلايلي د. عمر التّومي الشيباني د. عبد السّلام المسدّي رئيس التحرير
د. مصطفى التّير د. معن زيادة د. إبراهيم رفيدة رضوان السّيد

المدير المسؤول عوض شعبان

العنوان

معهد الإنماء العربي
بيروت - لبنان

الهيئة القوميّة للبحث العلمي
طرابلس ص. ب ٨٠٠٤
الجماهيريّة العربيّة الليبيّة الشعبيّة الاشتراكية

ص. ب المجلة: ١٤/٥٥٦٤ ص. ب المعهد: ١٤/٥٣٠٠

الثمن: ٢٠ ل. ل. أو ما يعادلها

الاستشراق في أزمة (*)

د. أنور عبد الملك
ترجمة: د. حسن قبيسي

«لا بدَّ لنا من أن نرى أوروبا من الخارج، أن نرى تاريخ أوروبا، نقائض أوروبا، ونجاحاتها، من خلال أعين ذلك الجزء الواسع من البشرية الذي يتكوَّن من شعوب آسيا وافريقيا».

جوزف نيدهام

من أجل نسف ذلك «الستار الحديدي من الأحاجي المغلوطة» الذي يتحدَّث عنه «كلود رُويْ» لا بدّ لنا بصورة ملحَّة من أن نشرع بإعادة نظر وتقييم نقديّين للتصوُّر العام، وللمناهج والأدوات التي استعملها الغرب في معرفته للشرق، لا سيّما منذ أوائل القرن الأخير، على جميع الأصعدة وفي جميع المجالات. هذا أمر حاسم، بالنسبة لكل علم متماسك يطمح لأن يكون تمثُّلاً ذهنياً. رغم ذلك، فقد كان من الواجب أن تنهض أمم وشعوب آسيا وافريقيا وأميركا اللاتينية، منذ جيلين لكي تولِّد هذا الوعي المتأخر والمتردِّد في كثير من الأحيان، والذي أصبح ضرورة عملية لا محيص عنها، بعد أن كان شرطاً مبدئياً. وذلك بالضبط بتأثير ـ قاطع ـ من العامل السياسي، أي بتأثير انتصارات مختلف حركات التحرر القومي على صعيد الأرض. في هذه الآونة، تعتمل الأزمة في صميم الاستشراق: منذ (١٩٤٥)، لم يعد «الحقل» هو الذي يستعصي عليه وحسب، بل «البشر» أيضاً، البشر الذين كانوا بالأمس «موضوعاً» للدرس، وأصبحوا اليوم «ذواتاً» أسياداً. ثم إن مجال علوم الانسان والمجتمع، قد بدا هو الآخر يعاني من الحاجة إلى قهر جديد، إلى انبساط وامتداد، إلى تحوُّل لا يطال الحقل وحده. لكنهم لا يرون في ذلك، في هذه الآونة على الأقل، أزمة معيَّنة، إذ إن هناك عوامل عدة وخاصة

(*) انور عبد الملك، «الجدلية الاجتماعية»، باريس، ١٩٧١، ص. ٧٩ - ١١٣.
- A. Abdelmalik, «La Dialectique Sociale», Paris, Le Seuil, 1971, 79-113.
وقد نشرت الدراسة أولاً في مجلة Diogène العدد ٤٤/١٩٦٣.

الدور المتعاظم الذي تضطلع به المنهجية الماركسية، الشمولية والتأريخية، فضلاً عن المناهج التي تتصل بها من قريب أو بعيد أي مناهج العلم والعقلانية الحديثة، مما يتيح ضرباً من المرونة والتوفيق أشد فعلاً ووقعاً، رغم النقص الشديد الذي يَعتورهُما.

لننظر عن كثب. دراستنا تتناول بالطبع العالم العربي، لا سيِّما مصر، لكنها تتطرَّق أيضاً إلى قطاع الصين وجنوب شرق آسيا بصورة ملحقة.

حول تاريخ الاستشراق التقليدي ـ منذ تأسيسه الذي أُقر في مجمع ڤيينا عام (١٩٤٥)، مروراً بأولى منابر اللغات الشرقية في جامعة باريس، حتى حرب (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥)، توجد مؤلفات كثيرة ومواد متفرقة بمتناول الباحثين؛ وهي، على غناها بالأفكار، نادراً ما تتصف بالتماسك والدقة[١]. غير أنه من المفيد أن نشير إلى أن الازدهار الحقيقي للدراسات الشرقية في القطاعين الرئيسيين اللذين هما، العالم العربي والشرق الاقصى؛ يعود تاريخه، بالدرجة الأولى، إلى عصر التمركز الاستعماري، وبشكل خاص إلى السيطرة الأوروبية على «القارات المنسية» (في أواسط القرن التاسع عشر، ثم في ثلثه الأخير): فكانت الموجة الأولى تتصف بإيجاد الجمعيات الاستشراقية (باتافيا ١٧٨١، **الجمعية الملكية الآسيوية**، لندن ١٨٣٤) ثم **الجمعية الآسيوية** (باريس ١٨٢٢، **والجمعية الأميركية الشرقية** ١٨٤٢، ... إلخ.). أمَّا المرحلة الثانية، فشهدت ظهور مؤتمرات المستشرقين، التي انعقد أوُلها في باريس عام (١٨٧٣). وكان عدد المؤتمرات التي عقدت حتى حرب (١٩١٤ ـ ١٩١٨) ستة عشر مؤتمراً (آخرها في ڤيينا عام ١٩١٢). ولم ينعقد منذ ذلك الحين إلاَّ أربعة مؤتمرات...

ماذا كانت تدرس تلك المؤتمرات بالضبط؟

هذا المستشرق ـ «العالم المتضلع من معرفة الشرق ولغاته وآدابه... إلخ،»[٢] ـ أيُّ نوع من البشر هو؟ أي نوع من العلماء؟ ما هي الدوافع التي تحدو به؟ بماذا يهتم؟ ما هي الأهداف التي يطمح لبلوغها؟ ينظر «**مايكلنجلو غويدي**» (١٨٨٦ ـ ١٩٤٦)، إلى المسألة من منظار فلسفةٍ للتاريخ مناقض لمنظار الشعوب الدائرة في فلك الهِلِّينية، هذا المنظار الذي يتبناه «ڤرنر جيجر»[٣] بشكل خاص: «إنني أعني بالمستشرقين هنا، أولئك الذين يدرسون الشرق الأدنى. إذ إن فكر الهند والصين هو بالتأكيد فكر ذو أهمية رئيسية لمعرفة سبل الذهن... لكنه ليس على أية صلة حيوية **بنا**». «أمَّا نحن المستشرقون، فالواقع أننا ننظر باتجاه الثقافات التي يظهر فيها العنصر الشرقي بأتم تعبيره، أي باتجاه الثقافات القومية الصافية، باتجاه الاسلام مثلاً، لا فقط من أجل إعادة خلق عالم أجنبي ـ يتمتع على كل حال بقدر كبير من القيمة والكفاءة العلمية ـ بل (أيضاً) لأن ذلك هو الوسيلة الوحيدة التي تمكننا من أن نفهم كل الفهم طبيعة العناصر التي كوَّنت ذلك الانصهار الرائع الخصب الذي حصل

يصف المشاهد من الطائرة، حيث القرى تبدو كأنها بقع قاتمة، إذ تتنسّق المشاهد من الجو، وما هو بدون أهمية يختفي. وهكذا في ثلاث ساعات فقط، تمكَّن من زيارة لبنان والجولان وجبل الدروز وقسم كبير من سورية. فالطائرة التي حطّمت المسافات بنظره قد جمّلت فن المشاهدة[٧]. وحين كتب سيرة حياته تكلّم مجدَّداً عن رحلته إلى الشرق مهلِّلاً للسرعة: « هذه هي الرحلة الحديثة: نذهب بسرعة، نستعجل ونقفز ونقتحم. فبدل أن يدهمنا النعاس تحت الشمس ونحن نمتطي ظهر دابة بطيئة، وبدل أن تُثار أعصابنا وتهلك حواسنا، نُلقي على المناظر والمارّين نظرة الفاتحين، فننتزع الأشكال ونسجّلها في ذهننا كصور فوتوغرافية »[٨].

إنما بعض الرحّالة الآخرين لا يشاركون بوردو رأيه. فمثلاً **رينه فانلاند**[٩] **وبول نوريسون**[١٠] يهزّهما الحنين إلى القوافل، حيث يتمكن الرحّالة من تأمل المناظر الخلاّبة واستعادة الذكريات القديمة.

إلى جانب السرعة، هناك خطر جديد ساهم في تدمير نكهة أدب الرحلة، وهو الارتباط الزمني والدقة في البرنامج. فلم يعد الرحّالة يذهب حيث تقوده قدماه، ولم يعد للصدفة أي معنى ـ ويبدو أن الرحّالة الجدد يتنقلون وأعينهم تراقب ساعاتهم؛ نقرأ مثلاً: « الجمعة ٢١ آذار عند الساعة السادسة صباحاً، انطلقت السيّارتان إلى القدس كما هو مقرّر »[١١]. أو « موعد الغداء هو الساعة العاشرة لأننا سننطلق عند الساعة الحادية عشرة »[١٢]. أضف إلى ذلك تأثير « دليل المسافر » الذي يفرض المعلومات ويحدّ من الحشرية ولذة الاكتشاف.

وقد برزت بعد الحرب العالمية الأولى إشكالات تتعلّق بهدف الرحلة وشخصية الرحّالة. فالكثير من الرحّالة كانوا متأثرين بالكتابة الصحفية الأكثر انتشاراً في تلك الآونة، وكل منهم كان يكتب مذكراته بقصد نشرها في إحدى المجلاّت. لهذا السبب صدرت مجموعة من كتب الرحلات لا قيمة أدبية لها، لأنها بمعظمها تدور حول الرحّالة نفسه بدل وصف المشاهد الغريبة. وهذا الخطر الصحفي ارتبط لمدة طويلة بالادّعاء (Snobisme). فعلى ما يبدو، أنه خلال هذه الفترة سافر الكثير من الكتّاب، ليس بقصد التمتّع بما هو غريب وليس لأنهم يشعرون بهذا الانجذاب نحو الشرق، وإنما لكي يعودوا إلى وطنهم ويحدّثوا عمَّا رأوا. وبديهي في هذه الحال أن نرى احتكاك الرحّالة بسكان البلاد التي زاروها شبه معدوم، والكثير من التفاصيل تبدو مضافة لإعلاء شأن الكاتب. ولكي نأخذ فكرة عن ذلك، ليس لنا سوى إلقاء نظرة سريعة على كتب الرحّالة: **ل. بوذو**[١٣]، **جاك لوفان دوق**[١٤]، **لوران فيبار**[١٥]، **موريس هونوريه**[١٦]، **جوزف كاسل**[١٧]، **آبل مورو**[١٨]... وغيرهم.

ومن جملة المخاطر، أن بعض الرحّالة أمّوا الشرق لملء مركز إداري، لذا فهم يحدثوننا عن الشرق كمسؤولين، مثل الكونت **غونتو بيرون** الذي كان مساعداً للمفوَّض السامي، ولم يكن يرى من الشرق سوى الوجه السياسي، وقد لاحظ أن الصحف الفرنسية لا تقوم بمهمة لفت أنظار الفرنسيين إلى المشرق كما يجب،

فأصدر كتابين: **تمركز فرنسا في سورية** ـ (١٩٢٢) **وعلى طرقات سورية** ـ (١٩٢٨). ونلاحظ في هذين الكتابين رأي فرنسي مندفع لمصالح بلاده أكثر مما هو رأي موضوعي.

ولا يغرب عن بالنا، أن الرحّالة الفرنسيين أتوا بعد الحرب إلى بلدان مشرقية يحكمها أبناء بلدهم كلبنان وسورية. فلم يعودوا يحسّون بالتغرب كما في الماضي، بل بالعكس يشعرون وكأنهم في بلدهم. وفي أكثر الأحيان كان يُجرى لهم في سورية ولبنان استقبال رسمي. وكم من الرحّالة حدثونا عن الاحتفالات التي أُقيمت على شرفهم. **فهنري بوردو** مثلاً استقبله الجنرال غورو (في ٢٥ أيار / مايو ١٩٢٢)، ولا يتورّع كاتبنا عن ذكر قسم من الخطاب الذي أُلقي في الاحتفاء به. فبمثل هذه الظروف، لا يستطيع الرحّالة التخلُّص من رتابة الاستقبالات الرسمية. وبدل أن يحدثنا بوردو عن اختلاطه بأبناء البلاد، يصف لنا احتفالاً أُقيم في باحة السراي حيث تألقت النساء الشرقيات بحلاها وجمالها وثيابها، مقلِّدة آخر الأزياء الباريسية. وهذا هو بنظره وجه الشرق الحقيقي. فنظرته إلى الأمور بقيت سطحية وبعيدة عن واقع الشعب ومعاناته. ثم إن هؤلاء الرحّالة لم يروا من وجه الشرق سوى جواهر وحلى الطبقة الغنية المتحالفة مع سلطة الانتداب. أما مميِّزات هذه البلدان فلم تُذكر إلاَّ بصورة عابرة. أضف إلى ذلك، أن معظم الرحّالة في هذه الفترة قرأوا كتب سابقيهم، ومنهم من أطّلع بصورة وافية على تاريخ وجغرافية وتقاليد البلدان التي زارها. لذا لاحظنا في بعض كتب الرحلات دراسات علمية عن ديانة قديمة أو عن حقبة تاريخية معيَّنة. فبعضهم يبدو وكأنه يتلو عن ظهر قلب كتاباً للتاريخ[١٩]. وبعض الرحّالة لم يكن يعرف القيمة الحقيقية لهذا النوع الأدبي، لذا رأيناهم يمزجون بين أدب الرحلة والمغامرة الشخصية. وهذه هي حال هنري **شامبلي**[٢٠]، الذي يصف لنا زعيق سيارته التي تجعل الحصى يتطاير على جنبات الطريق، بينما الهواء يصفر من شدة السرعة. وهو لا يصف المشاهد ولا المارّة ولا الآثار. ومن سورية ولبنان ومصر، لا يذكر سوى بعض السهرات التي أمضاها في علب الليل. فحين وصوله إلى مصر مثلاً، يدعوه أحد الأصدقاء لزيارة الأهرام فيرفض متذرِّعاً بأنه رآها من شرفة النزل الذي يقيم فيه، وهو يخشى في حال اقترابه منها أن يشعر بالقرف. أما عن السكان فكل ملاحظاته سطحية: «العرب، هم أبناء الصحراء طبعاً. إنهم يرتدون السروال، ويتميّزون بشواربهم التي تشبه شوارب علي بابا»[٢١].

أما رحلات الحجّاج إلى الأراضي المقدسة، فكانت ترتدي عادة طابع زيارة منظّمة. والكتب التي كانت تصدر لم تكن سوى تقارير مليئة بالتقوى والإشادة بالروحانية التي يشعر بها المؤمن، حين تطأ قدماه الأرض المقدسة. لذا، فمعظم هذه الكتب مشبع بكلام الإيمان أكثر ممَّا هو نقل انطباعات موضوعية؛ من بين هؤلاء الكتّاب نذكر: **غرانت**[٢٢]، **غيري**[٢٣]، **بايني**[٢٤]، **لوغا**[٢٥]، **كودال**[٢٦]، **نوريسون**[٢٧]، **فاليري رادو**[٢٨]... وغيرهم.

ورغم ذلك، لا يجب أن نعتقد بأن أدب الرحلة في هذه الفترة الزمنية قد انعدم كلياً. بالعكس، فإن هناك بعض الرحّالة تركوا لنا عن المشرق كتباً رائعة، تفوح بالجمال والموضوعية. من هؤلاء نذكر: **جيروم وجان تارو**[٢٩]، ألبير فينا[٣٠]، وموريس بارنو[٣١]...

★ ★ ★

ولكن! ما هي الصورة التي يتركها رحّالة تلك الحقبة عن المشرق؟ معظم هؤلاء الرحّالة حافظ على صورة الشرق التقليدية، على أنه موطن الحلم والجمال. فالطبيعة استرعت انتباه الجميع، من مناظر الاخضرار، إلى منظر غياب الشمس، إلى الينابيع... إلخ. فبمجرد ذكر اسم الشرق، نرى بعض الرحّالة يغرقون في الخيال: «الشرق... كلمة تبرق كلؤلؤة تحت سماء زرقاء وفجر متواصل... إنه أرض قاحلة تزهر بالذكريات والقصص... إنه أرض الفراعنة والخلفاء والمجوس، أرض الحجارة الكريمة والبخور...»[٣٢].

إننا نقرأ صفحات طويلة، تصف مشهد انبثاق فجر أو غياب شمس أو سحر مدينة تثير الخيال. ولا عجب أن نرى الأخوين تارو اللذين عرفا الشرق عن كثب، ودرسا العادات والتقاليد، واحتكّا بالسكان، نراهما يحدّدان الشرق بصور خيالية: «الشرق هو حلم منسي على ضفة نهر؛ إنه انشودة مسلمة مكوّنة من لا شيء، إلاّ من الحب والاسترخاء وزقزقة العصافير في الفسحات المليئة بالاخضرار. إنه بناء لازوردي وخيالي مكوّن من عناصر سريعة العطب، ولا ندري إذا كان يحافظ على توازنه لولا قدرة الخيال»[٣٣].

والمشرق بقي موطن الديانات بنظر الرحّالة. إنه المنطقة التي تزهر بالانقسامات، وكأن الشرقي لا يمكنه العيش إلاّ بالنزاع والتشرذم. فالطوائف في الشرق تنقسم وتتعادى، وكل منها تنغلق على ذاتها مكوّنة شبه أمة. فالأخوان **تارو** كرّسا صفحات من كتابهما «طريق دمشق» لوصف ما يسمّونه بفسيفساء الديانات. وبعض الرحّالة عزا هذا الأمر للخيال الشرقي المنصرف إلى تأمل الكتب السماوية، حيث يرى البعض في كل فترة تفسيرات جديدة، فيقوم المصلحون ويتبعهم كل مفتش عن جديد. وأكثر الرحّالة الذين لفت انتباههم هذا المظهر، كان **جان ماليا والبير فينا وجيروم وجان تارو**. فالأخوان تارو حاولا مراراً تمييز الاختلافات بين الأنقسامات المسيحية، حتى وصلا إلى الحائط المسدود: «يا له من تنوّع، يا لها من اختلافات كثيرة الدقة! كيف لي أن أجد الوضوح من خلال التعرّجات العقائدية الدقيقة ومن خلال الطقوس المختلفة! يا إلهي، كم رأيت من البطاركة والمطارنة ورجال الدين! كم من الطقوس المنوعة مثل قوس قزح! لقد ظننت في إحدى اللحظات بأني أمسكت بهذا التلوّن العجيب! أمّا اليوم، فلم تعد لي نفس الثقة وأخاف إن عددت الطوائف أن أخترع هرطقة جديدة»[٣٤].

وفي هذا الخضمّ الصاخب، يلتقط معظم الرحّالة صوراً كاريكاتورية للاحتفالات المختلفة التي كانت تجري في القدس، حيث كان البعض يرتل باللغة اليونانية، فيقابله من ينشد بصوت أعلى باللغة العربية أو القبطية. وكثيراً ما ينتهي الاحتفال بمعركة بين المصلّين تُلزم تدخُّل قوات الانتداب البريطاني [٣٥].

ويلاحظ الرحّالة الانقسامات نفسها عند المسلمين، إذ يخصِّص الأخوان تارو فصلاً كاملاً «آلهة سورية»، حيث يغوصان في كل التفاصيل المتعلّقة بالمذاهب الاسلامية، ويخلصان إلى القول: «ليس أسوأ من أن ترى أمامك الأفكار العظيمة مهشّمة. أحسّ بأني أضيع في متاهات من الديانات المتناثرة، إذ أرى أمامي كُوَماً من الأفكار تئنُّ وتنحط وتتشوّه» [٣٦].

★ ★ ★

والمشرق يبدو بلد التاريخ والأساطير. فلا يسعْ الرحّالة أمام الآثار القديمة إلاَّ العود إلى الوراء، ليذكّروا بالحضارات التي تعاقبت على المنطقة. ومنهم من يخصص فصولاً كاملة للتكلُّم على شعب. **ألبير فينا** مثلاً، يتكلَّم مطوَّلاً في كتابه «في بلد التوراة» عن تاريخ الفينيقيين؛ بينما **كاميرير** في كتابه «رحلة في السيارة عبر بترا والأردن والصحراء»، يكلمنا عن تاريخ مملكة بترا بالتواريخ والأسماء. ومن التاريخ، ينتقل البعض إلى الأساطير: أسطورة أدونيس، أسطورة قدموس، أسطورة برج بابل... إلخ.

ولكن رغم أهمية التاريخ، يبدو أن الرحّالة في فترة ما بعد الحرب اهتموا بالحاضر وأحداثه. فكلَّهم تأثروا بالأحداث، وحاولوا تحليل مواقف شعوب الشرق. وهكذا، تكلم معظمهم عن التمزُّق الجغرافي، وعن عمل الانتداب، والثورة الدرزية، والمخطط اليهودي للاستقرار في فلسطين، والصراع الفرنسي الانكليزي للنفوذ في الشرق. وقد استرعى التمزُّق المفروض على المنطقة انتباه **رينه فانلاند**، الذي كتب رحلة عنوانها «التمزُّق الشرقي»، وكذلك **بيار لامازيار** الذي كتب «أثناء ذهابي إلى سورية». ومن خلال هذين الكتابين، يبدو الشرق أرض الجراح بسبب بعض التوجهات السياسية الأنانية، التي وجد لها الغربيون غطاء تحت مبدأ حماية الأقليات. فبنظر لامازيار، كان الهدف من إنشاء الدول أزدياد عدد الحاكمين والمندوبين والموظفين والطامعين بالمال على حساب الميزانية العامة. وهو يذهب أبعد من ذلك، فيتهم الجنرال غورو بأنه جعل من سورية مقدونية أخرى، إذ قطّع أوصالها بحدود اعتباطية. أمَّا فانلاند، فإنَّه يتساءل في نهاية كتابه، بأسلوب طغى عليه الحزن والمرارة: «ماذا سيحصل لهذه الدول التي رُسمت بشحطة قلم على الخريطة، وبهذه الحدود الوهمية الاعتباطية التي جاءت تشطر تجمُّعاً موحَّداً إلى اثنين، أو تسد نهراً، أو تقطع طرقات تجارية، أو تعطي مرافىء إلى بلدان ليس لها ما تصدّره، بينما تحرم بلدان خصبة من هذه المنافذ المهمة؟» [٣٧]. وينهي فانلاند رحلته، الغنية بالذكريات، بهذه الملاحظة: «أما الآن، وتحت وطأة رحلتي الصاخبة إلى الشرق الأوسط المضطرب والممزَّق، فإن هناك

كلمة واحدة تهيمن على تفكيري، تلاحقني وتصفعني على وقع دواليب القطار الذي ينقلني: تمزّق! تمزّق! تمزّق!»[٣٨].

وهناك ناحية أخرى استرعت انتباه الرحّالة، وهي عمل الانتداب الفرنسي. عن هذا الموضوع، تكلّم مفصّلاً **بارنو، لامازيار، وغونتو بيرون**. ومعظم الرحّالة أشادوا بالعمل التنظيمي والعمراني الذي يقوم به الفرنسيون؛ وقد رفضوا أن يروا أيّ وجه سيء للانتداب، بينما نلاحظ أن عدداً قليلاً كان له الجرأة على انتقاد الوجود الفرنسي. ويمكننا أن نورد هنا رأيين متناقضين، يعطياننا صورة واضحة عن هذا الموضوع. **فكلود دارفن** مثلاً، ينهي رحلته بمديح للفرنسيين: «لقد شيّدت فرنسا، وزرعت واعتنت وثقفت في كل مكان من الشرق... وغداً، حين ينسى الناس الطرقات والجسور والمستشفيات والمدارس، فإن عشب الحقول عندما ينبت ويزهر في كل عام، سيصيح في الهواء ممجّداً اسم فرنسا»[٣٩]. بينما **بيار لامازيار**، ينهي رحلته متشائماً: «لِست سنوات خلت، نتابع سياسة سراب وأوهام. إننا نتوه في سورية ولبنان، مفتشين عن حقيقة هاربة قادتنا على طرقات وعرة، حيث هشمتنا الصخور والأشواك، ولم نلاقِ إلاّ الخيبات والمآسي. كل شيء يعطينا البرهان بأننا ضائعون، فلنتراجع ونغيّر أساليبنا. وإذا كنا لا نستطيع تغيير مفاهيمنا وأساليبنا فالأفضل ألاّ نذهب أبعد من ذلك، ولنعدْ إلى بلادنا...»[٤٠].

★ ★ ★

والثورة الدرزية ضد الفرنسيين عام (١٩٢٥)، لاقت بدورها صدىً كبيراً في كتب الرحّالة، الذين لم يكن بإمكانهم تجاهل حدثٍ بمثل هذه الأهمية، خاصة وأن الآلاف من الجنود الفرنسيين لاقوا مصرعهم في تلك الثورة. لهذه الغاية، زار الكابيتن **جورج كاربييه** الشرق، وكتب رحلة بعنوان «في جبل الدروز». **وهنري بوردو وبيار لامازيار** بدورهما يعالجان هذه القضية، إذ إن الشرق الأوسط أصبح مجدّداً رمزاً للتضحية الفرنسية. إنها أرض أُريقت فيها الدماء الفرنسية، من أجل عزة وعنفوان فرنسا.

ويلحظ الرحّالة حدثاً مهماً، سوف يكون له مضاعفات كثيرة في المشرق، وهو محاولاتٍ زرع وطن قومي يهودي في فلسطين. يعرض **فانلاند** المشكلة من خلال لقاءات متعددة مع السكان، ويذكر رأياً متطرّفاً لأحد الضباط الأنكليز: «فلسطين هي وطننا، وفيها نحسّ بالارتياح. أهو عامل العِرق، أم الدين، أم العاطفة، الذي يعطينا هذا الأحساس؟ بدون شك، إنها كل هذه العوامل مجتمعة. يمكننا بالطبع أن نكون يهوداً في أيّ بلدٍ من العالم، إنما اليهودية لا تزدهر إلاّ في أرضِ منبتها ومجدها في فلسطين»[٤١].

أمّا **بايني**، فيكلمنا عن الحركة الصهيونية من الناحية التاريخية، ويتساءل عن تأثيرها في مستقبل الشرق. **فينا**

يحدِّد دور ومسؤولية الانكليز من خلال وعد بلفور. ماكس دو **سان فيليكس** يذكر الاضطرابات التي قامت عام (١٩٢٩)، بين اليهود والعرب، ويورد رأياً عربياً متطرِّفاً: «إنّي أقول لكم بأن هذا الشعب لا يعرف الانصهار في أي مجتمع... والويل لنا مسيحيين ومسلمين إذا تواصلت الهجرة اليهودية، وأصبح لهؤلاء غير المرغوب فيهم التفوُّق العددي» (٤٢).

من خلال هذه الرحلات، يمكننا استقراء المستقبل، والتقدير بأن هذه المشكلة سوف تكون مصدر قلق واضطرابات في الشرق. وهناك موضوعات كثيرة نستشفها من كتب الرحلات في هذه الفترة، وتعطينا صورة واضحة عن تقلّبات الأحداث في الشرق: صراع النفوذ الفرنسي ـ البريطاني، فشل المؤتمر الاسلامي في فلسطين لانتخاب خليفة للمسلمين، تأثير لورانس في بث فكرة المملكة العربية، المطالبة المستمرة بالاستقلال... إلخ. وعلى وجه العموم، فإن معرفة الشرق تبدو أكثر شمولاً وأكثر عمقاً.

★ ★ ★

ولكن، هل توصل أدب الرحلة إلى استكشاف نفسية الشرقي؟ هل بقي الشرقي لغزاً لا تحل عقدته؟، وما هي الصورة التي يعطيها الرحّالة عنه؟

من أولى مميّزات نفسية الشرقي، كما تبدو من خلال أدب الرحلة في هذه الفترة، التعصُّب الديني والتعلُّق بالروحانيات، وهي نقطة ضعف يستغلها رجال السياسة على أحسن وجه لتحقيق مآربهم. فمهما كانت قناعات المسؤولين السياسيين، فإنهم لا يسقطون من حساباتهم واهتماماتهم هذا الشعور الديني الموجود في أعماق كل شرقي، ويؤثر على تصرفاته وردَّات فعله: «لقد شعرت أينما ذهبت بوجود قوة طائفية كامنة متسترة حيناً وبارزة حيناً آخر، ولكنها تنتظر أية مناسبة لتصبح فاعلة» (٤٣).

ويحاول **روبير دوتراز** في كتابه «التغرُّب الشرقي» أن يُعطي تحليلاً سيكولوجياً لهذه الظاهرة، فيرى أن التعصُّب ليس إلاَّ همجية جسدية، أو بقايا تشنّجات عصبية تعود إلى حروب الجهاد عند العرب، أو أنه فورة غضب، كالتي تهيّج حيواناً ضد حيوان آخر: «هذا الشعب يبدو في أغلب الأحيان مرحاً وباسماً، ولكنك لا تعلم في أية لحظة ينقلب فيها ويصبح مجرماً» (٤٤). وفي هذا المجال، ينوِّه الرحّالة بأن الشرقيين يمزجون بصورة مستمرة بين ما هو ديني وما هو سياسي.

والتعصُّب الطائفي ينقلب أحياناً ـ ولأجل أغراض سياسية يغذّيها النافذون ـ إلى تعصُّب وطني. وبما أن الشعور الوطني لم يتبلور فعلياً في ذهن الشرقيين، فقد انقلب إلى شعور بالعداء للآخرين.

وهكذا، فالرحّالة يقدّمون لنا، على العموم، صورة قاتمة عن النفسية الشرقية؛ فالشرقي إنسان متعصِّب،

يكره الآخرين، يتعلّق بالمظاهر، يدعو إلى التطوُّر دون أن يكون مقتنعا بذلك. وفي هذا المجال، يرسم الأخوان تارو صورة قاسية عن الانسان الشرقي. فقد التقيا موظفاً فرنسياً أمضى أثنتين وعشرين سنة في الشرق، وهو يزمع العودة إلى فرنسا. فهذا الموظف يصف لهما العربي، بعد طول خبرة، كما يلي: « العربي هو إنسان الخيال، ولا علاقة له بما يسمّى المنطق. إنه لا يعرف وضع حدود بين المعقول واللامعقول، وطيلة وجوده لم يعرف أن يؤسس أو ينظّم دولة، لأن فكرة المصلحة العامة بعيدة عن تصوّره. وإذا رأيت العربي اليوم متحمّساً للأفكار البرلمانية، فذلك لأن الديمقراطية تتلاءم مع عيوبه الثلاثة الأساسية: الإدّعاء الجنوني، الرغبة في الثرثرة المتواصلة، الميل الطبيعي إلى الأعمال المعيبة. فالموظفون والوزراء لا يفكرون إلاّ بالغنى السريع على حساب الأموال العامة. أضفْ إلى ذلك، أن العربي هو أفضل من يمثّل نكران الجميل. كان بمقدوري، يضيف الموظف، أن أبقى هنا شهوراً أو سنوات، إنما فضّلت الرحيل بعد أن أتخمني القرف »[٤٥].

هذه المساوىء التي يعددها الأخوان تارو، بشكل قاسٍ، وردت في كتب **أندريه برومو، موريس بارنو، رينه فانلاند...** وغيرهم. فصعوبة تنظيم الدولة ترجع إلى الأنانية الشرقية، إذ يصعب على الفرد أن يشعر بوجود غيره. لذا، فالشرقي لا يعمل من أجل المصلحة العامة: « تصب الحياة العامة في النهاية بمسائل شخصية. وبما أنه ليس للشرقي أي تخطيط مستقبلي، فهو يغرق بالصغائر اليومية. فالمشاحنات اليومية ليست وليدة اختلاف فكري، وإنما اختلاف أشخاص. وحين يتوصّل أحدهم للسلطة يتصرّف كسابقيه. وهكذا، فالأحزاب ليست سوى تجمعات تتحلّق حول زعيم يؤمن لها المراكز »[٤٦].

ويشدّد **دوتراز** على التناقض الكامن في فكر الشرقي، الذي لا يملك القدرة التحليلية وليست له الثقة الكاملة بنفسه؛ لذا نراه يشعر بالحاجة الدائمة لدعمٍ من الخارج. ويروي بارنو عن لسان الجنرال فيغان قوله إلى مجموعة من الوجهاء العرب: « إن أنظاركم تتحوّل دائماً نحو الخارج، وكأن الخلاص يمكن أن يأتيكم من بعيد؛ فمِنَ الأفضل أن تحوّلوا أنظاركم إلى الداخل »[٤٧].

والشرقي هو أيضاً قدري، وله ثقة عمياء بالقضاء والقدر. فأمام أية مصيبة أو مشكلة يجابهك بكلمة « مكتوب ».

أضف إلى ذلك أن الشرقي يؤلّه القوة والسلطة، وهو يبذل فناً خبيثاً لكي يكون له منزلة عند عظيمي الشأن. يحدثنا **لامازيار** عن رحلته إلى الشرق. من مرسيليا حيث كان على متن الباخرة المفوّض السامي الجديد هنري دو جوفونيل. ويُفاجَأ كاتبنا بوجود العديد من رجال الأعمال والمحامين والمتزلفين، الذين أتوا من سورية ولبنان حين علموا بتعيين المفوّض الجديد، فاستعلموا عن موعد سفره وأبحروا معه، لأن تعيين موظف بهذه الأهمية لا يشكّل فقط حدثاً سياسياً، وإنما مصلحة تجارية ومالية لمن يُحسن استغلالها. وهكذا، فالذكاء يقضي

بملاقاة المسؤول، وليس انتظار مجيئه، حتى يتسنى التعرّف إليه عن كثب، والتقرّب إليه وكسب مودته قبل سائر المنافسين. وينوّه لامازيار بحدثٍ له دلالة أكبر، وهو-استقبال المفوّض الجديد الحار، حيث يورد أن آلافاً من الناس تجمّعوا يهتفون بحياته وحياة فرنسا. وحين يعبّر الكاتب عن فرحته واعتزازه لأحد الموظفين الفرنسيين العاملين في بيروت، يُخرج هذا الأخير من أحد الملفات صحيفة تعود إلى العام (١٩١٥)، حيث يقرأ له وصفاً للاستقبال الحار، الذي لقيه جمال باشا أثناء زيارته للبنان وسورية، إذ تجمع الآلاف من الناس للترحيب به، وزيّنوا الشوارع بالزهور وأقواس النصر. وبعد مقارنة الحدثين، يستخلص **دوتراز** إحدى أهم مميزات النفسية الشرقية؛ الخبث والانحناء أمام القوة: «هنا، يقول الموظف الفرنسي، لا يوجد لا حقائق ولا أكاذيب، وإنما صيغ مؤقتة. لذا، لا يجب الوثوق بالمظاهر، ولا يجب التسرّع بالحكم على الأحداث والناس الذين لهم في غالب الأمر وجهان»[٤٨].

وأخيراً، يلحظ الرحّالة تعلّق الشرقي بالمال ومظهر الغنى. فالربح السريع - ومهما كانت الأساليب ملتوية - هو فن شرقي. فجملة هذه الملاحظات عن النفسية الشرقية، قادت بعض الرحّالة المتعصّبين إلى إعطاء أحكام قاسية ومشوّهة عن الحضارة العربية والاسلامية. يقول **روبير دوتراز**: «الإسلام، هو اليوم كنبع جفّ ماؤه. فماذا باستطاعة المسلمين أن يلقنونا؟ فإذا كنا مرضى، فهم في حالة نزاع... إنها حضارة ساقطة، وديانتها ولغتها عقيمتان. فالأمثولة الوحيدة التي نأخذها من المسلمين هو أن انحطاطهم يجب أن يعلّمنا كيف نتجنّب الوصول إلى هذا الدرك»[٤٩].

★ ★ ★

وفي النهاية، نتساءل: هل الشرقي هو فعلاً هذا الانسان المحشو بالعقد، كما صوّره أدب الرحلة في مرحلة ما بين الحربين؟ في الحقيقة، إنّ الرحّالة في هذه الحقبة قلّما أبرزوا الوجه الإيجابي. فالليونة بنظرهم هي خبث، والإيمان هو تعصّب، والإباء هو عجرفة، والشعور الوطني هو حقد على الآخرين. فرحّالة هذه الفترة كانوا قاسين في أحكامهم، ولم يتقرّبوا من المجتمع الشرقي ويحبّوه، ليتمكّنوا من سبر أغواره. وحده، **رولان دور جولاس** في رحلته «قافلة من دون جمال»، دافع عن هذا المجتمع، وحاول إثبات أن هذه العيوب ليست خاصة النفسية الشرقية، وإنما هي عيوب إنسانية نجدها في كل بيئة: «إننا نأخذ عليهم تعصّبهم الذميم ودياناتهم المتعارضة، فهل انقساماتنا السياسية هي أفضل حالاً؟ ونتكلّم عن حبهم للمال، وكأن عبادتنا للذهب هي أرفع شأناً. وأحياناً نسترسل بالكلام عن خبثهم وكبريائهم، وكأنها عيوب لا توجد إلاّ في الشرق. وقد قيل إنهم جبناء، فعن هذا الموضوع إسألوا الذين بقوا أحياء من جنودنا الذين حاولوا قمع الثورة الدرزية...»[٥٠].

وهكذا، فأصابع الاتهام موجّهة إلى العدد الأكبر من رحّالة ما بين الحربين. فالرحّالة الحقيقي كما عرّفه

« فائض من المؤرخين والحقوقيين، والاقتصاديين والاختصاصيين الآخرين في العلوم الاجتماعية ». أمَّا أهم الأهداف المنشودة فهي التالية:

« أن يتوفر للأمة احتياطي أعظم مما هو متوفر لها الآن، وأشدّ توازناً، من جهة الباحثين ومن جهة المواد المنشورة حول هذه البلدان »؛

« أن يُصار إلى المساهمة في تشكيل هيئة تتولّى المواد المنشورة حول هذه البلدان؛

« أن يُصار إلى تشجيع الاهتمام باللغات الشرقية تشجيعاً غير مباشر »؛

وأخيراً « أن يُصار إلى رفع نسبة الدراسات الحديثة ونسبة دراسة اللغات الحديثة قياساً على الدراسات الكلاسيكية »[٢٨].

وتحلل اللجنة الجهد المبذول من قِبَل الولايات المتحدة، التي كانت تأتي في المرتبة الأخيرة أيام لجنة « سكاربورغ »، وتُعْرب عن تأثرها الشديد بـ « اتساع رقعة الجهد المبذول، وبنمط التنظيم الذي يعتمد عليه هذا الجهد، وبالتشديد على الدراسات الحديثة ». ثم تُلفت انتباه الحكومة البريطانية إلى النقاط التالية: « قوة الدعم الذي تخصصه حكومة الولايات المتحدة للدراسات الشرقية والصقلبية، نظراً لأهميتها القومية. الجهود المبذولة من قبل مراكز دراسة المجالات لإسقاط الحواجز الفاصلة بين مختلف فروع المعرفة، والعمل على تقدُّم دراسة هذه المجالات تقدماً متوازياً. المفعول المنشط الناشىء عن التشديد على الدراسات الحديثة، دور المنح التي تُدفع للطلاب المجازين بغية توجيههم نحو حقول عمل جديدة، قيمة الدروس اللغوية المكثفة والمساعدات الآلية المعدَّة لتخطّي صعوبة اللغات التي لا تُدرَّس في المدارس، ولتقليص مدة التعلُّم ».

هل يعني ذلك، أنه ينبغي تقليد الولايات المتحدة حرفياً؟ « إن تقاليد التبحُّر الكلاسيكي والهلّيني والشرقي أضعف ممَّا هي عليه في أوروبا... وحقل البحوث البريطانية في هذا الميدان، ولا سيما في الدراسات الشرقية، يقع بين التقاليد الكلاسيكية واللغوية الصارمة في أوروبا الغربية، وبين التطوّرات الحديثة التي تشدِّد على العلوم الاجتماعية في أميركا »[٢٩]. فينبغي تأمين الحوار، فضلاً عن تأمين مصالح الدولة، عن طريق توسيع الأعمال وتجديدها وتحسين نوعية الباحثين، لا عن طريق « اقتحام » الموضوع المدروس من قِبَل الاستشراق الاوروبي.

أمَّا أن تكون هذه المسلمة في صميم الاستشراق الاوروبي بأسره ـ سواء كان تقليدياً أم متجدداً ـ وتظل مضمرة لدى جميع العلماء الاوروبيين غير الاشتراكيين، فأمرٌ لا يختلف حوله عاقلان. هكذا عندما يستعرض، « سير هاملتن أ. ر. جيب » تاريخ الاسلام، منذ أصوله حتى أيامنا هذه، يعتمد على تسعة عشر مؤلفاً أوروبياً، ليس بينهم سوى شرقي واحد هو أ ع. عفيفي[٣٠]. وعندما انعقد مجمع السوسيولوجيا الاسلامية في بروكسل

(بين ١١ و ١٤ ايلول ـ سبتمبر ١٩٦١) ليستمع إلى عشرين متكلّماً، لم يكن بينهم عالم شرقي واحد، الأمر الذي أثار، بحقّ احتجاج «جاك بيرك»[٣١]. رغم ذلك، فقد كان بيت القصيد في المجمع المذكور يتعلّق بتطور المجتمعات العربية والاسلامية في القرن العشرين... وقد حاول المؤرخ المصري حسين مؤنس أن يلفت الأنظار عبثاً إلى أن قسماً كبيراً ممّا عُرض في المجمع قد تجاوزه الزمن، وصار متأخراً عن ركب التاريخ الذي يصنع نفسه[٣٢]. وكتابات «فون غرونباوم» الأخيرة تنتمي إلى النظرة نفسها، غير أن الثقافة الفلسفية الرصينية التي يتمتع بها مؤلفها تتيح له، مرات عديدة، أن يقدّم تحليلات متراصة البنية يشتم منها الجهد المبذول لتخطي العادات القديمة[٣٣]. أمّا أطروحة «فنسن مونتي» التي صدرت مؤخراً حول «العربية الحديثة»، فتحفل بالأخطاء والمغالطات ـ خلافاً لكتاب «هانس وير» ـ وتشكل نموذجاً صارخاً عن الرغبة في التنظير، دون معرفة بالحقل المدروس من داخله[٣٤].

□ ٢ ـ **مناهج الدراسة والبحث:** أ ـ ما زال الماضي يحتل المكانة الأولى في الدراسات الشرقية. لكنه لم يعد يستأثر بها. فمقتضيات السياسة، وانتقال مركز الثقل إلى خارج أوروبا، والانفعال الذي تولّد عندما خطت شعوب الشرق خطواتها الجريئة، بعدما كانت خاضعة وطيّعة، على تفاوت، وحاجات تنقيح بعض عادات العمل من أجل مجاراة العلوم الاجتماعية الأخرى ـ كل هذه العوامل ساهمت بصورة حاسمة في توجيه دراسات الاستشراق الجديد نحو العصر الحديث بل المعاصر.

ب ـ غير أن هذا الحاضر الذي اتخذ أخيراً موضوعاً للدراسة (لقاء صعوبات بالغة في كثير من الأحيان) لم يكن بمنحى عن مقتضيات تكوين النمائط الخاصة بمختلف شعوب الشرق. والتوسط بين المقتضيات الاجتماعية السياسية لتكوين هذه النمائط، وبين الحداثة يتم عن طريق الفلسفة البنوية. إذ تعمد هذه الفلسفة، كما هو معلوم، إلى دراسة قطاعات من الواقع بما هي قطاعات، أي بمثابة «بنى». فهي لا تدرسها، ولم تعد تدرسها، بوصفها نتيجة، أو حصيلة أو منحى لتطور تاريخي. هكذا تبدو البنيوية في العلوم الاجتماعية بمثابة أفضل تعبير مقبول ـ أفضل تعبير موضوعي ـ للظاهراتية، التي هي الشكل السائد في الفلسفة اللاعقلانية في زماننا؛ بيد أن المنهج البنيوي في الاستشراق يتحرك على أرض معروفة، إذا جاز القول، إذ إن البنيوية قد انبثقت عن الألسنية مع دروس «ف. دي **سوسور**» حول «الألسنية العامة» بين (١٩٠٦ ـ ١٩١١) (طبع كتاب دي سوسور «دروس في الألسنية العامة» عام ١٩١٦).

هكذا، فإن المستشرقين التقليديين، وهم في معظمهم لغويون أو اختصاصيون بالأديان، ومعتادون على البنيوية، قد التقوا بيسر مع زملائهم الحديثين أصحاب الاستشراق الجديد، الذين كانت البنيوية توفر لهم الوسيلة الموثوقة المأمونة ـ فضلاً عن اتصافها بـ «الحداثة» ـ لبناء صياغتهم ضمن حلة جديدة.

ج ـ ثم دأب الدائبون على التجريح بالعمل العلمي الذي تمّ في بلدان الشرق، إمّا عن جهل (إذ صار من

الصعب أكثر فأكثر، إن لم يكن من المستحيل، التنظير لقطاع بكامله - عربي، صيني، آسيوي، أميركي/لاتيني، اسلامي - انطلاقاً من وثائق محصورة حتماً، بينما يزداد الانتاج المحلي ويتكاثر يوماً بعد يوم، وإمّا استمراراً في الحرص على أولوية (نظرية) للمعرفة»[٣٥].

د - أمّا منهج المشاركة والتوغّل الذي نادى به «جاك بيرك» ونفّذه، فهو أجدر بالاهتمام: «في شأنِ حي، ملحّ، مكابد، مثل هذا الشأن، تحتفظ الوسائل العلمية الاعتيادية بقيمتها، وهي قيمة كبيرة: لكنها لا تكفي. ينبغي على المرء أن يعيش على صلة بهؤلاء البشر، وأن يسعى إلى الإلفة معهم. بحيث يصل في ذلك إلى حد التغاضي والتواطؤ فهل يتسنّى له ذلك إذا لم يتوفر لديه عنصر الهوى والشغف؟»، ثم يكتب «بيرك» بحق، عن هذا «التقصي الذي يتصف بالمشاركة أكثر من أيّ وقتٍ مضى» فيقول: «لن تكون الانطباعية نقطة القوة لديّ. فدورنا يقوم على الفهم. غير أن على التحليل، حتى يكون فعّالاً ويصل إلى الاعماق، أن لا يعزل الوقائع عن سياقها الانفعالي، ولا عن المعنى الذي تلونها به التجربة المعاشة»[٣٦].

أما «كنتويل سميث»، الذي ينتمي إلى الوسط الكندي غير «الامبريالي»، فيرى أن قيمة هذه المشاركة تتوقف على حكم السكان الأهليين: «فالعمل يفشل أيضاً إذا كان المسلمون الاذكياء والمتجردون عاجزين عن تقدير دقة ملاحظاته، فضلاً عن مدى تفسيراته وتحليلاته ورغبتها في توضيح الأمور»[٣٧].

□ ٣ - أدوات الدراسة والبحث:

أ - في هذا الصدد تعتزم القوى الغربية، لا سيما الولايات المتحدة، إضافة مراكز جديدة لمراكمة الثروات والمواد الثقافية، إلى جانب المستودعات القائمة حالياً. والوسائل هنا لا سبيل إلى مقارنتها مع كل ما يملكه الشرق بمؤسساته العلمية وباحثيه[٣٨].

ب - التعاون مع علماء بلدان الشرق وباحثيها، يُعتبر ضرورة موضوعية. غير أننا سنلاحظ أن الولايات المتحدة تضع بمتناول هؤلاء مراكز ووسائل إشعاع واسعة نسبياً[٣٩]. بينما يتم هذا التعاون في أوروبا الغربية على صعيد ثانوي[٤٠].

رغم ذلك فقد أفضت الواقعية لدى «هـ. جيب» - بعد أن وضع ثبتاً بإفلاس الدراسات التاريخية حول الشرق الحديث - إلى المناداة بوجوب تقسيم العمل: «إن أولى مهام (الباحث) الجامعي الغربي هي أن يبحث في المصادر الغربية وينسّق بينها ويقيّمها بصورة نقدية. أمّا الميدان المخصوص بالنسبة للجامعي الأهلي، فهو التنقيب عن الأراشيف والمواد الوثائقية المحلية وتنظيمها». ويستطيع المرء أن يلاحظ أن «التقييم النقدي» للعناصر المجتمعة ليس من مهمة الجامعي الاهلي...، في نفس الوقت «ينبغي أن يكون معلوماً، دون أي

التباس، أن الجامعي الغربي لا يسعه أن ينجز أيّ عمل على المستوى الأكاديمي في مجاله الخاص، إلاَّ إذا كان يملك معرفة سليمة باللغة العربية أو الفارسية أو التركية حسب مقتضى الحال، فضلاً عن إلمامه بالخلفية التاريخية والثقافية». هذا يعني على وجه التأكيد، «أن على الطالب الناضج، الذي يدرس تاريخ الشرق الأوسط، أن يكون إلى حدٍ ما، مستشرقاً». لكن «المؤرخ لا يكون مؤرخاً جيداً في مجال الشرق الأوسط، إلاَّ إذا كان يتمتع بخصال تقنية في مجال أوسع»[٤١]. فالأولوية معطاة إذن للإعداد العلمي الاختصاصي الذي يرفده ويكمّله إعداد لغوي عرقي ـ ثقافي مناسب.

لقد عالجنا حتى الآن الاستشراق الغربي الجديد، كما يجب أن يعالج. لكن استمرار «المحورية ـ الاوروبية»، بشكل موازٍ له، عبر التجلّيات التحديثية التي اضطلعت بها غداة الحرب العالمية (الثانية)، وازدياد حدة الصراع المباشر بين البلدان المستعمَرة (في الشرق) والقوى الامبريالية (في الغرب)، سوف يساعدان على نشوء فئة فرعية جديدة هي فئة الناشرين والصحفيين المتخصصين بشؤون آسيا وافريقيا، فضلاً عن امتداداتها الجامعية هنا وهناك. ثم إن الجهل بلغات الشعوب الشرقية غالباً ما يقترن باعداد علمي تتخلله الفجوات والثغرات. فأساليب البيان والبلاغة، وشهرة الصحفي الكبير سوف تُتَّخذ عربوناً وحجة لإصدار منشورات مضلِّلة تتحوَّل بدورها إلى مصادر استعلام مباشر و «اختصاصي» بالنسبة لمثقفي الشرق وجمهور الغرب على السواء[٤٢].

□ الاستشراق الجديد في القطاع الاشتراكي:

نتحدث هنا، بشكل رئيسي، عن القطاع الاشتراكي (من دول وحركات) في اوروبا. والواقع، أنه رغم وجود ساحة مشتركة، فإن العمل الذي تم في الصين يبدو أقرب إلى التصوُّرات التي هي تصورات الدول القومية المستقلة غير الاشتراكية والحركات الاشتراكية في آسيا وافريقيا وأميركا اللاتينية.

وقد اهتم باحثو القطاع الاشتراكي بالدراسة المعمَّقة لبلدان الشرق، في أعقاب الحرب العالمية الثانية: لقد أشرنا إلى الدور الرائد الذي قام به «جاك بيرك» في الحقلين العربي والاسلامي، عندما قام بذلك التنقيب الواسع الذي يتكوَّن بشكل رئيسي من كتبه الثلاثة «فقدان امتلاك العالم ـ (١٩٦٤)»، و «مصر، الامبريالية والثورة ـ (١٩٦٧)»، و «الشرق الثاني ـ (١٩٧٠)» فضلاً عما يكتنفها من أعمال تنتمي إلى فروع معرفية عدة. وقد شرع «**مكسيم رودنسون**»، منذ (١٩٥٠)، يمعن النظر والفكر في الاستشراق التقليدي، بالعلاقة مع مد حركات التحرر القومي في البلدان العربية والاسلامية[٤٣]. في نفس الوقت بدأ «**جان شينو**» أطروحته حول «الحركة العمالية الصينية من ١٩١٩ إلى ١٩٢٧»[٤٤]. وبدا العالم البيولوجي البارز «**جوزف نيدهام**»

ينشر في كامبردج، بدءًا من (١٩٥٤)، وبعد خمسة وعشرين عاماً من العمل الدؤوب، أول مجلَّد من موسوعته « العلم والحضارة في الصين »، التي تطمح إلى تزويد حضارة عصرنا وثقافته ببعدهما الثاني ـ البعد الصيني ـ بعد أن ذهب هذا البعد ضحية الإهمال ابتداءً من القرن الثامن عشر (الاوروبي). وتعتبر هذه الموسوعة الضخمة نموذجاً للتبحُّر العميق، والدقة العلمية والعمق النظري، بحيث أنها وُصفت بحق بأنها « أعظم عمل تأليفي في التاريخ وفي تواصل الثقافات فيما بينها، ينصرف إليه كائن بشري »[٤٥]، [ل. بيكن].

أمَّا في البلدان الاشتراكية، فقد كانت المسألة كناية عن استعادة لتراث قديم، صير إلى توجيهه باتجاه اهتمامات جديدة، بناءً على المنهجية الماركسية وعلى بروز الشرق من الناحية السياسية[٤٦].

فقد أعطى مؤتمر تضامن الشعوب الافرو ـ آسيوية في باندونغ (ابريل/نيسان ١٩٥٥) دفعاً حاسماً لعملية التجديد الثقافي ـ لا سيما في التاريخ والعلوم الاجتماعية والأدب ـ في القارتين؛ وما لبث أن انعقد، بعد هذا المؤتمر، المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي (١٩٥٦)، فحدد « المسار الجديد »، للاستشراق السوفياتي. وقد عالج المؤتمر الأول للمستشرقين السوفيات، الذي انعقد في طاشقند (١٩٥٧) أربعين موضوعة عامة، نخص بالذكر منها:

١ ـ تهافت السستام الامبريالي؛ ٢ ـ مهامّ الاستشراق السوفياتي بعد المؤتمر العشرين؛ ٣ ـ الأهمية العالمية لمؤتمر باندونغ.

كما شدَّد المؤتمر الواحد والعشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي على هذا الاتجاه نفسه، الذي وصل إلى أوجه في المؤتمر الأممي الخامس والعشرين الذي عقده المستشرقون في موسكو، في (آب/اغسطس ١٩٦٠).

هذه المقدمة التاريخية القصيرة تساعدنا على وضع تحليل الاستشراق الجديد في القطاع الاشتراكي في موضعه.

□ ١ ـ **التصوُّر العام**: أ ـ على صعيد **المشكلة**، ينبغي أن تكون نهاية الهيمنة الأوروبية من الناحية السياسية ـ وهو أمر أقره مؤتمر باندونغ، والأونيسكو، وتقرير « هايتر » والاطروحات الايديولوجية لدى القادة الصينيين، من بين من أقروه ـ مصحوبة بنقد أساسي « للمحورية الاوروبية »، أي برفضها والتخلِّي عنها نهائياً من حيث المبدأ. « إن الحضارة الغربية ما زالت تعاني من عجرفة ثقافية لا مبرر لها تشوِّه صلاتها بشعوب العالم الأخرى، ويمكن أن تصح تسمية ذلك بـ « اللؤم الروحي في أعلى درجاته »، كما تصح تسميته بـ « روح الشر في الأمور الإلهية ». وبعد أن يندد ج. **نيدهام** بـ « نفسية السيطرة التي ما زالت على قاب قوسين »، يضيف قوله: « إن العملية التي تمكِّن شعوب آسيا من المشاركة، بدورها، في جميع مكاسب العلم الحديث، ومن دراسة عالم الطبيعة

على نحو جديد، ومن قراءة «مجلة الفيزياء البيولوجية» (مثلاً)، ودراستها والتعليق عليها واستيعابها داخلياً، ومن اكتساب احترامها لنفسها من جديد بوصولها إلى مستوى من المعيشة يضارع المستوى الذي وصل إليه أيّ جزء آخر من العالم، مع احتفاظها بكل ما في تراثها الثقافي والديني من أوجه مشرقة.. هذه العملية ما زالت عملية بطيئة»[٤٧]. «إن الخطأ الأساسي الذي ترتكبه المحورية الاوروبية، يكمن في المسلمة الضمنية التي تعتبر أن كل ما هو أوروبي هو في الوقت نفسه شامل، لا لشيء إلاّ لأن العلم والتقنية الحديثة اللذين نشآ بالفعل في أوروبا عصر النهضة هما شاملان». ثم يبرهن **نيدهام** على أن هذه المسلّمة باطلة علمياً وتاريخياً في آن واحد، ويشدّد على دور الدين بوصفه وسيلة اختراق وتكامل لاوروبا[٤٨].

وتختلف اللهجة اختلافاً تاماً في الخطاب المهم الذي ألقاه «انستاز ميكويان» النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء في الاتحاد السوفياتي، في الجلسة الافتتاحية لمؤتمر المستشرقين الخامس والعشرين: «من المفروغ منه أن التبدّل الثوري الذي عصف بحياة شعوب آسيا وافريقيا، يغير طابع الاستشراق ومضمونه تغييراً جذرياً، بل إن بوسعنا أن نقول إن السمة النظرية الجديدة في الاستشراق هي أن شعوب الشرق بدأت تخلق، اليوم، علمها الخاص، وبدأت تصيغ تاريخها وثقافتها واقتصادها. هكذا، فإن شعوب الشرق قد تحوّلت من كونها موضوعاً (أو مادة) للثقافة، إلى كونها في مصاف الشعوب الخلاّقة. هذا ما يميِّز هذا المؤتمر عن المؤتمرات التي سبقته».

ب ـ وسرعان ما يقترن هذا التأكيد المبدئي ـ الذي يلتقي مع **النواة الاساسية** لفكر شعوب آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية، ومثقفيها ـ برؤية سياسية هي رؤية الجبهة العالمية للصراع ضد الامبريالية، فيقول «ا. ميكويان»: «إن من واجب المستشرقين أن يعكسوا في أعمالهم، بصورة موضوعية، أهم العمليات الجارية في بلدان آسيا وافريقيا؛ وأن يعمدوا، بصورة خلاقة، إلى صياغة المشكلات الاساسية لصراع شعوب الشرق من أجل تحررها القومي والاجتماعي والتعويض عن تأخرها الاقتصادي. ويصح أن نقول إن الاستشراق لن يسعه أن يعوّل على كسب اعتبار واسع ولا على النجاح، إلاّ عندما يصبح في خدمة مصالح الشعوب الشرقية»[٤٩]. هذه هي الأفكار التي يعبِّر عنها الاكاديمي «ب. ج. غافوروف»، مدير معهد الاستشراق في موسكو، في كلمته التي اختتم بها أعمال المؤتمر: «إننا معشر المستشرقون السوفيات، نعتبر من واجبنا العلمي، فضلاً عما يمليه علينا وعينا، أن نساعد شعوب الشرق، دونما انقطاع، في صراعها من أجل مستقبل أفضل. وإننا مقتنعون بأن اكتشافاتنا ونتائجنا العلمية، ومنهجنا العلمي العميق، المنهج الماركسي اللينيني الذي أكد الواقع صحته، كما أكدتها تجربة بلادنا في مضمار بناء الاشتراكية، تجربة مبنية على نظرية علمية تقدمية.. إننا مقتنعون بأن كل ذلك من شأنه أن يساعد شعوب آسيا وافريقيا على إيجاد السبيل الأفضل والأفعل من أجل إحراز التقدم»[٥٠].

ويلاحظ القارىء أن تقييم الاستشراق، تقييماً علمياً، يتم بالعلاقة مع موضوعيته، ومع ما يمكن أن يؤديه من

خدمة لمسألة التحرُّر والبناء القوميين. على هذا الصعيد الأخير ينبغي أن تتم « مؤازرته »، أي مساهمته مع « الذات »، مع « المبدعين ».

ج ـ غير أن هناك الكثيرين من المستشرقين الجدد في أوروبا الاشتراكية، ما زالوا يعتقدون ـ على صعيد الموضعة ـ ما يعتقده « **ج. شينو** »، من أن « مجرد بناء الدراسة العلمية لبلدان آسيا وافريقيا على عموميته العلم التاريخي أو الألسني، يعني الوقوع من جديد، في هذه المرحلة من التطور العالمي، في المحورية الأوروبية. لا لأن الحاجز اللغوي يبرِّر تنظيماً خاصاً للعمل وحسب، بل لأن هناك سماتٍ كثيرة ما زالت مشتركة اليوم بين جميع بلدان آسيا وافريقيا، وما زالت تميزها عن اوروبا، بحيث لا يعود من الضروري أن نعوِّل عليها تعويلاً كبيراً. لقد شاخ مفهوم الاستشراق وتخطاه الزمن، لكن الدراسات الآسيوية والافريقية ما زالت تطرح نفسها مصحوبة بمشكلاتها الخاصة: التخلُّف، تاريخ التوسُّع الامبريالي والحركات القومية، التقاليد الخاصة العائدة إلى القرون الوسطى...، إلخ. »[١٥].

ويشير المؤلف، بحق، إلى اغتناء « النظرية الماركسية العامة لتاريخ العالم » بالعناصر التالية المستمدّة من دراسة الميّزات القومية المخصوصة في آسيا وافريقيا:

أهمية « الأسلوب الشرقي للانتاج » ضمن الإطار العام لتقسيم التاريخ البشري إلى مراحل وفقاً لأساليب الانتاج الاساسية الخمسة[٥٢].

حصيلة الامبريالية الاستعمارية « مع أخذ تناقضاتها الداخلية بعين الاعتبار »، وهي تناقضات « يتجلّى مظهرها الرئيسي في سيطرتها الشرسة وفي جميع ظاهرات التقهقر والركود التي تولدها »، دون أن « نتجاهل ذلك المظهر الثانوي الفعلي الذي يتلخص في عناصر المجتمع الجديدة التي أشار إليها ماركس في معرض حديثه عن الطابع المزدوج للامبريالية البريطانية في الهند »[٥٣].

ظهور حركات التحرر القومي في المستعمرات بوصفها عاملاً متقدماً، من الناحية الموضوعية، على الحركة العمالية في البلدان الاوروبية.

أهمية العامل المسمَّى بـ « النفسية القومية »[٥٤].

ظهور نمط ثالث من الأمم (بالإضافة إلى النمطين اللذين ميِّز بينهما « ج. ستالين ») ضمن المجموعة الافرو ـ آسيوية، تبعاً لدرجة تماسكها عبر التاريخ.

« تشميل الفكر الماركسي »[٥٥].

الدور المختلف الذي تلعبه الطبقة العاملة والذي يتجه إلى أن يصبح العنصر المركزي في القوى الشعبية، في

الشعب، لا في الطبقة المهيمنة الوحيدة.[٥٦].

أمّا الصيغة السوفياتية الرسمية ـ بعد المؤتمر الواحد والعشرين للحزب الشيوعي (١٩٥٨) ـ فأقرب إلى الصيغة التقليدية: « كثرة المشكلات والظاهرات الجديدة المتصلة بدخول عدد من بلدان الشرق الكبرى طريق النمو المستقل، وخاصة نضال الطبقة العاملة من أجل رفع مستوى معيشتها، ودور الطبقة العاملة في عملية تصنيع البلدان الضعيفة النمو من الناحية الاقتصادية وفي الحياة الاجتماعية والدولة بأسرها ».

دراسة المشكلات المتعلقة بالتفاوت الطبقي في صفوف الفلاحين، ومشكلات التطور الرأسمالي المتسارع في الحقل الزراعي، وما ينشأ عنه من نتائج ».

« مشكلات نضال الطبقة العاملة من أجل الهيمنة داخل الحركة الفلاحية، في صلب هذه المرحلة الجديدة من النمو، هي مشكلات مهمة تسترعي الانتباه بشكل خاص ».

« إن البحث المتعمّق باتجاه إيجاد وتنمية الادبيات القومية في بلدان افريقيا وآسيا يوجّه ضربة قاضية لنظريات المحورية الاوروبية. لذا، فإن دراسة المشكلات المتصلة بالتفاعلات بين أدبيات الشرق والغرب تتخذ أهمية من الدرجة الأولى »[٥٧].

□ ٢ ـ **مناهج الدراسة والبحث:** أ ـ قبل كل شيء، يصار إلى تحديد « موقف جديد تجاه مشكلة العلاقات بين الاستشراق وبين كل علم من العلوم الانسانية، على أن ينظر إلى كل علم من حيث شموله للكرة الأرضية... فسواء كانت المسألة تتعلق بالتاريخ أم بالاقتصاد أم بالسوسيولوجيا أم بالادب أو بعلم اللغة، فإن على الرئاية أن تعمد إلى نزع الطابع الشرقي، عن الدراسات المتعلقة بآسيا...، وإرجاع هذه الدراسات إلى ما يمكن أن نسميه بـ « الحق العام » لكل فرع من فروع المعرفة ». ويتابع « **ج. شينو** » فيقول: « لا ينبغي أن نتهرَّب من عائق اللغة ومن عائق الإرث الاجتماعي والعرقي. لكن علينا، بعد تخطي هاتين الصعوبتين، أن نعتمد نفس المنهج ونفس المشكلة لدراسة البورجوازية الايطالية ولدراسة البورجوازية الاندونيسية لتحليل حركة (Auf Klàrung)، ولتحليل حركة النهضة الادبية في الصين عام (١٩٢٠)، لمعالجة الاقتصاد البريطاني أثناء حصار البر الاوروبي ولمعالجة الاقتصاد الهندي منذ الاستقلال. إن هذا الاتجاه لا يفيد الدراسات الآسيوية وحسب؛ إنه يساعد في نفس الوقت على توفير ركيزة شاملة فعلاً لكل علم من « علومنا الانسانية التي لم يكن عتادها الفهمي ومعطياتها القاعدية تنجم حتى الآن إلاّ عن دراسة أوروبا الغربية، ما خلا بعض الاستثناءات القليلة ». رغم ذلك، يظل هناك نوع من الخصوصية المشتركة بين المجموعة الأفرو ـ آسيوية: « إن رئاية التشميل هذه، رئاية وضع الدراسات الاسيوية على قدم المساواة، لا تستبعد أن يظل هناك حتى اليوم علاقات فعلية وصلات موضوعية أوثق بين

مختلف البلدان الاسيوية[٥٨] . يكفي أن نستذكر إسم « باندونغ »، وينبغي أن نعتني أكبر الاعتناء بالتشابهات التي ما زالت تطبع التطوُّر الحاصل لبلدان آسيا (وافريقيا على كل حال)، وهي تشابهات ما زالت تميِّزها حتى اليوم عن الغرب . لكن الاحتفاظ من الزاوية المنهجية، بمقولة الاستشراق التقليدية، هو أمر آخر، إذ إن ذلك يتفق تماماً مع وحدة منهجية لدراسة مجتمعات الشرق والغرب »[٥٩] .

ثم إن محاكمة الجهل الغربي للشرق قد عُقدت مرات عديدة، لا سيما مع « ج . نيدهام » و « اتيمبل »[٦٠] . فدراسة الفلسفة، في جامعات اوروبا وأميركا، حتى مستوى التخصص والدكتوراه، هي بالدرجة الأولى دراسة الفلسفة الاوروبية ؛ في حين أن الفلسفة الصينية، من جهتها، تغطي زهاء (٣٠٠٠) عاماً من النمو المستمر[٦١]، وأن الفلسفة اليونانية، قد تأثرت تأثراً عميقاً بالفكر الديني وبالأساطير المصرية والشرقية، وأن الفلسفة الاسلامية، في العصر الوسيط، قد كانت شيئاً آخر تماماً غير « نقل الإرث الثقافي اليوناني »[٦٢] . وأن مثالية الفكر الهندي قد غذَّت حضارة واسعة منوَّعة وزاهرة . ويمكننا أن نقول نفس القول بالنسبة لتاريخ العلوم، لا سيما الرياضيات، والحياوة، والطب، والفلك . وقد بدأت اوروبا، مجرد بداية، في اكتشاف ما كانت عليه الأدبيات التقليدية في آسيا وافريقيا، بفضل الأعمال التي قامت بها مختلف بعثات الأونيسكو بشكل خاص . أمَّا الحقل الحديث، فيكاد يظل مجهولاً برمته .

ب ـ بعد ذلك، يُصار إلى التشديد على دراسة الحاضر بشكل خاص، دراسة عمليات تطور المجتمعات الشرقية في العصر الحديث والمعاصر[٦٣] . « إن الدراسة المعمقة للمشكلات الراهنة من الفترة المعاصرة، ينبغي أن تصبح مركزية وأساسية » . ويضيف الكاتب السوفياتي إلى ذلك، « أنها تساعد على إيجاد حلول خلاَّقة مقبلة لمشكلات السياسة الخارجية للاتحاد السوفياتي تجاه بلدان الشرق، مما يشكِّل أمراً مشرِّفاً بالنسبة للمستشرقين »[٦٤] .

« إن المؤتمر الخامس والعشرين للمستشرقين المنعقد في موسكو، يشير إلى التعاظم السريع في نسبة الدراسات الحديثة . حتى في صفوف المستشرقين التقليديين، فضلاً عن تكاثر الأقسام القومية، وفي ذلك مؤشر قاطع على بروز أمم ودول لم يعد من الممكن جمعها تحت عناوين ذات طبيعة « نمائطية »[٦٥] .

غير أن هذا التعديل الحاسم والقاطع الذي طرأ على وزن كل من القطاعين « الكلاسيكي » و « الحديث » بالنسبة للدراسات الشرقية، لا ينبغي أن يتم على حساب الماضي، فقد كتب « نيدهام » يقول : « إنني لا أعتزم أبداً أن أقلِّل، بأية صورة من الصور، من شأن التحسين الخارق الذي أدخلته الحكومة الصينية الحالية، بقيادة الحزب الشيوعي، على وضع « الأسماء المئة القديمة » . في نفس الوقت، قد يكون من الصعب جداً على الغربيين أن يفهموا ذلك، فيما لو تغافلوا عن بعض الخصائص القديمة التي تتسم بها الثقافة الصينية التي يجهلونها في أغلب

الأحيان جهلاً محزناً. والواقع أن هناك كتّاباً معاصرين يعمدون أحياناً، بدافع البرهان على التجديد الذي أحدثته النهضة في بلادهم، إلى التنكر لماضيهم بالذات، إمّا عن طريق إشارتهم إلى جوانبه الغامضة، كخضوع النساء، وجشع ملاكي الأراضي، وإمّا عن طريق استهانتهم بفلسفة الفترات السابقة أو بانتاجها الفني. هذا معناه، أنهم ينشرون جذع الشجرة الذي يجلسون عليه. والواقع أن سائر العالم بحاجة إلى التعلّم، بكل تواضع، لا من الصين المعاصرة وحسب، بل من الصين منذ كانت. إذ إن في الحكمة والتجربة الصينيّتين أطباء لعدد كبير من الأمراض الفكرية، فضلاً عن عناصر لا غنى عنها بالنسبة لفلسفة البشر المقبلة »[٦٦] ».

ج ـ إن التصوُّر الماركسي للتاريخ والمنهجية التي ترافقه، يغذيان، بالطبع، القسم الرئيسي من هذه الأعمال. غير أننا نلاحظ أن علماء القطاع الاشتراكي يضمّون أيضاً أناساً بارزين غير ماركسيين ـ مثل « ج. نيدهام » ـ يندرجون ضمن فئة أوسع هي فئة العقلانية الفلسفية.

لكن حاجات النشاط العملي، لا سيما حاجات التجمعات، تدعو المستشرقين الجدد في القطاع الاشتراكي أحياناً ـ خاصة في بلدان أوروبا الغربية ـ إلى التعامل مع مناهج غير عقلانية، ـ وبالدرجة الأولى مع مناهج من نوع الظاهراتية تتجلّى عبر النمطية، وتنتمي مباشرة إلى البنيوية الشائعة ـ، ممّا يفسد الدقة العلمية ويعطّل الإخاء الأساسي في العمل، الذي ينبغي البحث عنه لدى المثقفين في بلدان الشرق المناضلة من أجل تحرُّرها وتقدمها[٦٧].

□ ٣ ـ **أدوات الدراسة والبحث:** أ ـ لم يتوفر للدول الاشتراكية، وخاصة الاتحاد السوفياتي، نفس المصادر من المواد ـ المباشرة أو الوسيطة ـ التي توفَّرت للقوى الاستعمارية وكانت وقفاً عليها وحدها. بالمقابل، فقد أدّت العلاقات الوثيقة التي نشأت بين الاتحاد السوفياتي والدول والحركات الشعبية الافرو ـ آسيوية، منذ مؤتمر باندونغ بشكل خاص، إلى شروع الفريقين ببذل جهد عظيم بالفعل في ميدان الاستشراق الحديث، فكان: « معهد شعوب آسيا » قرب أكاديمية العلوم، أكبر معهد على الصعيد العالمي. وأخذت الجامعات بأسرها تنظم دراسات حول آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية؛ وقد صدرت مجلات علمية جديدة ومهمة، بعد أن تضمنّت جميع أكاديميات العلوم في جمهوريات الاتحاد السوفياتي أقساماً أو هيئات تنصرف إلى هذه الدراسات. ويصل عدد العاملين في هذه الأقسام والهيئات حالياً، (في عام ١٩٦٢) إلى ما يتراوح بين (١٨ و ٢٠ ألف) شخصاً (من أساتذة وباحثين ومساعدين تقنيين ومترجمين وخبراء مكتبات... إلخ.) وهناك دار للنشر مختصة بالكتب الشرقية تنشر، وحدها، كتاباً جديداً كل يومين أو ثلاثة. كما أن الدراسات الحديثة تتقدَّم برفقة الاستشراق الكلاسيكي، الذي كان مزدهراً في روسيا الأمس. وأخيراً أنشىء « معهد افريقيا » عام (١٩٥٩) تحت إشراف الاكاديمي « ا. بونهكين »[٦٨]، فأدى ذلك خلال سنوات قليلة، إلى إحداث تغيير مفاجىء في المعطيات

العلمية للدراسات التي تتناول الشرق الحديث والمعاصر: فلم يعد من الممكن، منذ ذلك الحين، أن ينصرف المرء إنصرافاً عميقاً لتلك الدراسات، إلاَّ إذا كان يجيد اللغة الروسية، فضلاً عن اللغات الاوروبية التقليدية، وعن لغة واحدة أو عدة لغات شرقية.

ب ـ أمَّا العمل العلمي، الذي يقوم به الباحثون والعلماء من مختلف بلدان الشرق، فلا يُقدَّر ويُقيَّم ويُسعى للبحث عنه وحسب ـ إذ هذا أمر مفروغ منه ـ بل يوضع، كما يليق به، في مرتبة مرموقة. ويتحدث «ج. **شينو**»، بعد آخرين، «عن مشكلة أهلية الأجانب لدراسة الوقائع الاجتماعية المعاصرة، بنفس فرص النجاح المتوفرة للوطنيين». والواقع، «إن هؤلاء الآخرين يمتازون عنهم، بالطبع، بمعرفتهم للغة، فضلاً عن تعاطيهم بالفطرة مع كل المحيط العرقي، مع كل إرث هذه الشعوب الآسيوية». «فإذا دفعنا هذا المنطق إلى أقصاه، لكان بوسعنا أن نتساءل عمَّا إذا لم يكن من المعقول أن نعتبر أن دراسة المشكلات المعاصرة تقوم بالدرجة الأولى على عاتق الوطنيين، بينما نجد أنه كلما توغلَّت موضوعة الدراسة في الماضي، كلما كان من الأسهل على المتبحِّرين، غير الآسيويين، أن يعالجوها». والنتيجة التي يصل إليها «شينو» تلتقي، جزئياً، مع النتيجة التي وصل إليها «هـ. جيب» وذكرناها أنفاً: «إذا كان يسعنا هنا، أن نتحدَّث عن امتياز قومي، فليس يسعنا أن نتحدث عن استئثار قومي بالنسبة لما يعني دراسة العالم المعاصر. فثمة أجانب يأتون من أمكنة بعيدة، حاملين معهم إرثاً ثقافياً أو اجتماعياً مختلفاً. فيتمكَّنون غالباً من التوغل بسرعة شديدة، ومن جهة أصيلة، في حياة شعوب أخرى. فمن بين أفضل المؤلفات التي كتبت حول الحياة السياسية منذ خمسة أعوام، نجد، مثلاً، دراسات انجلو ـ ساكسونية»[٦٩].

أمَّا السياسة الثقافية في الصين، فلا تبدو في الوقت الحاضر، منفتحة مثل هذا الانفتاح على الباحثين الأجانب: «فأول ما ينبغي ملاحظته هو أن البحث الأكاديمي (بالنسبة للباحثين الأجانب) هو نادر جداً». والأطروحة المركزية هي «أن الأجانب لا يستطيعون فهمنا: فحقل العلوم الصينية يخص الصينيين». رغم ذلك، «فإذا كان من الممكن القيام بهذه الدراسة بواسطة مواد معينة، ووثائق رسمية وبمساعدة توجيه متيقظ، لأصبحت معالجة أحد المواضيع الحساسة أمراً ممكناً. ولكن إذا كانت الدراسة تقتضي الملاحظة المباشرة الميدانية، بدون توجيه، كما تقتضي اشتراك الناس بها اشتراكاً حراً وواسعاً، فضلاً عن العمل المستقل» فإن العوائق تنتصب عندئذ «إلاَّ بالنسبة للأجانب المأمونين والموثوقين». «وقد يبدو، للوهلة الأولى، أن علم الأثريات حقل سياسي غير حساس. لكنه، من جهة أخرى، يقع ضمن الحقل المخصص للصينيين وحدهم، أي أنه حقل يتناول دراسة كنوزهم القومية الخاصة وتفسير تاريخهم الخاص. في هذا الصدد، لا بد للاختصاصي الياباني أن يتذكر إلى أيِّ حد تتصف أثريات اليابان، ما قبل الحرب، بالحساسية البالغة». غير أن المؤلف

الأميركي لهذه الدراسة[٧٠] يشير إلى المساعدة الذكية والكثيفة التي قُدِّمت لـ « ج. نيدهام »، وإلى المساعدة المحصورة التي تلقاها « ج. شينو »، بينما استفاد « ر. ديمون » و « جيوس » و « فيتز جيرالد » (زيلندا الجديدة) و « س. شاندرازيخار » (الهند) من ضيافة رحبة جداً. هنا، نجد أن موقف القادة الشيوعيين في جمهورية الصين الشعبية أقرب إلى موقف الدول القومية المستقلة في آسيا وافريقيا، منه إلى موقف البلدان والحركات الاشتراكية في أوروبا.

ج - ثم إن على نمط الباحث العلمي نفسه، أن يتغيَّر تغييراً جذرياً. فدراسة اللغة الغربية الكلاسيكية التي كانت سائدة في القرون الوسطى، ودراسة التصوُّف الاسلامي تمكِّنان صاحبهما من التحدث عنهما، لا من فهم التمايز الحاصل في بورجوازية هذا البلد العربي أو ذاك وانقسامها إلى قطاعات عدة، ولا من إدراك مشكلات الأدب العربي الواقعي بعد عام (١٩٤٥)، ناهيك بفهم ايديولوجية مختلف الأطراف التي تتكوَّن منها الحركة القومية والديمقراطية[٧١].

إن « تسوية » الدراسات الشرقية، تضع في المرتبة الأولى صلابة وعمق الإعداد الاختصاصي، في هذا القطاع أو ذاك، من العلوم الانسانية والاجتماعية (اقتصاد، حقوق، تاريخ، سوسيولوجيا، علوم سياسية، فلسفة، جماليات... إلخ.). وينبغي أن يكون هذا الإعداد مقترناً بدراسة سريعة، ولكن كافية إلى حد معقول، للغة البلد أو القطاع المدروس؛ كما هي في العصر الحديث والمعاصر، ووفقاً لمنوَّعاتها المكتوبة والمحكيَّة. أمَّا هدف هذه الدراسة اللغوية، فهو تمكين الباحث من الوصول بيسر وبصورة مباشرة إلى المواد الأولية من جهة، والتمهيد لفهم الحياة اليومية للبلد المدروس فهماً نفسانياً وسوسيولوجياً، من جهة أخرى. ويستغرق هذا « الإعداد المزدوج » في الاتحاد السوفياتي مدة ثماني سنوات، بينما تعمد الولايات المتحدة إلى إعداد لغوي « متسارع » بعد انهاء الدراسات الاختصاصية[٧٢]. أمَّا الاهتمامات الرسمية للبلدان الانكلو - ساكسونية فتلتقي، حول هذه النقطة، مع اهتمامات القطاع الاشتراكي الاوروبي، كما تلتقي في الوقت نفسه، ومن حيث الجوهر، مع نظرة بلدان الشرق نفسها.

لقد حان الوقت لاعتماد توجه جديد بالضرورة. ويرى المرء، من الناحية الموضوعية، أن مختلف قطاعات الاستشراق المعاصر، في السنوات الأخيرة، قد بدأت تعي هذه الضرورة.

(١١) روزيه، «**رحلة في المملكة الجزائرية**» - (باريس، برتران ١٨٣٣) المجلد ٣، (ص ٤١٢).

(١٢) توديسك، «**البارزون العظماء**» الجزء ٢، (ص ٨٢٧)؛ مقتطفاً من جريدة «كريير دي لاجيروند»، ٦ جوان/حزيران ١٨٤٦.

(١٣) المصدر السابق، وقد عبر عن آراء مماثلة بوديشون في «**زوال المسلمين**» في «مراجعات عن الشرق والجزائر والمستعمرات»، ١٠ (١٨٥١)، (ص ص ٣٩ - ٤٠). كما اقترحت «ليكو دوران» (صدى وهران) - ٢ مايو/أيار، ١٨٤٦، إبادة الجنس العربي من الجزائر ومراكش. وإن هذا العمل إيجابي، والرأفة الانسانية الحقيقية تتضمّن وجوب إبادة الأجناس التي تقف في وجه التقدم. وانظر أيضاً: ف. ا. هاين، «**وجود الأمة في الجزائر**» (باريس: ١٨٣٢)، (ص ١٠٨).

(١٤) «**حياة پلانا دي لافاي: ذكرياته، رسائله، وكتاباته**» - (باريس، اوليندورف - ١٨٩٥)، (ص ٧ من المقدمة)، تحرير زوجته.

(١٥) پلانا دي لافاي، «**مذكرة مقدمة إلى الملك**»، (باريس: ١٨٣٩)، (ص ١٠)؛ طلب فيها تثبيت الرتبة التي ترقّى إليها في واترلو.

(١٦) حياة پلانا دي لافاي، (ص ٧).

(١٧) پلانا دي لافاي، «**تشجيع الهبات من الدولة لمشاريع السكك الحديد**»، (باريس: ديلانشي ١٨٤٠)، (ص ٩). أراد من الدولة أن تشجع السكك الحديدية بدعمها مالياً بحسب كل كيلومتر من التمديدات.

(١٨) «**حياة پلانا دي لافاي**» (ص ٥٦٣). ويدّعي دي لافاي أنه كان صديقاً وثيق الصلة بالاقتصادي الليبرالي ف. باتيستا، وأنه شكّل رابطة في باريس لنشر أفكار باتيستا عن طريق الطبقات الشعبية لأعماله. ومن الأعضاء المهمين في الرابطة، ميشيل شيفالييه وهوراس ساي، ودوق أركور: وهو مؤمن متعصب لحرية التجارة، من بوردو. انظر، المصدر السابق، (ص ٥٦٣).

(١٩) پلانا دي لافاي، «**في ضرورة التخلي عن الجزائر**» - (باريس، ديزوش ١٨٣٦)، (ص ٤).

(٢٠) پلانا دي لافاي، «**ملحق لفكرة التخلي عن الجزائر**» - (باريس: ديزوش ١٨٣٦)، (ص ٣).

(٢١) «**في ضرورة التخلي...**»، (الصفحات ٦ و١٣).

(٢٢) المصدر السابق، (ص ٥).

(٢٣) المصدر السابق، (ص ٧).

(٢٤) المصدر السابق، (ص ٩).

(٢٥) المصدر السابق، (ص ٨).

(٢٦) المصدر السابق، (ص ٩).

(٢٧) المصدر السابق، (ص ١٠).

(٢٨) المصدر السابق.

(٢٩) پول آزان، «**الجيش في افريقيا من ١٨٣٠ - ١٨٥٣**» - (باريس: بلون، ١٩٣٦)، (ص ١٧).

(٣٠) «**ملحق لفكرة التخلي...**»، (ص ١٦).

(٣١) المصدر السابق، (ص ١٧).

(٣٢) المصدر السابق، (ص ١٧). وصفت المجلة العسكرية «**الجيش**»، المستعمرة الجديدة بأنها «مدرسة عملية لفنون الحرب، وأرض اختبار لجيش شاب»، العدد ٢ (٢ يوليو/تموز، ١٨٣٧).

(٣٣) «**ملحق لفكرة التخلي...**»، (الصفحتان ١٠ و١١).

(٣٤) المصدر السابق، (ص ١٥).

(٣٥) المصدر السابق، (ص ١٢). و«**البرانس**»، تشير إلى الأردية البيضاء التي يرتديها الجزائريون.

(٣٦) المصدر السابق، (ص ص ١٠ - ١١).

(٣٧) پلانا دي لافاي، «**في ضرورة التخلي...**»، (ص ص ١٢ - ١٣).

(٣٨) المصدر السابق، (ص ص ١٣ - ١٤).

(٣٩) پلانا دي لافاي، «**ملحق لفكرة التخلي...**»، (ص ١٠).

(٤٠) پلانا دي لافاي، «**في ضرورة التخلي...**»، (ص ٩).

(٤١) صحيفة «**لاناسيونال**» (٢٥ أغسطس/آب، ١٨٣٣). وفيها مثال آخر على النظرة التحديثية لهذا المدافع عن السكك الحديدية، انتقاده للبعثة المؤلفة من علماء نظريين، أرسلتها الحكومة الفرنسية لدراسة الجزائر. فقد اقترح بديلاً عنها إرسال مهندسين وفنيين شباب، (المصدر السابق). وانظر أيضاً: **مقالة مارسيل بلانشار «رسائل أنفانتين عن الجزائر»** في مجلة «**ريفو استوريك**»، العدد ١٨٢، (١٩٣٨)، (ص ٣٤٠). وقد عولج أثر السان سيمونيين الهائل المباشر في غزو الجزائر واستعمارها، من قبل مارسيل أيميريت في «**السان سيمونيون في الجزائر**» - (باريس ١٨٤٣). أمّا المخطط النظامي «العلمي» الذي ابتدعه انفانتين، فقد شرحه في كتابه «**استعمار الجزائر**» - (باريس ١٨٤٣). كما أسس جريدة سنة (١٨٤٤) لم تعمر طويلا هي «**الجزائر**»، للدعوة لنظرته إلى الجزائر وإلى الاستعمار؛ انظر: «**رسائل أنفانتين...**»، (الصفحتان ٣٤٦ - ٣٤٧).

أمّا السان السيمونيون، فلم يكونوا البتة وحيدين في ميدان ريادة التخطيط الضخم للتوسع والتنمية بين المستقبليين (Futurists)، فقد تبعهم أتباع فورييه، خصوصاً وأن السيد الاستاذ، كان قد «تصور في وقت مبكر يعود لسنة ١٨٢١، استعمار شمال افريقيا، واستصلاح الصحراء الكبرى، واستيطان أربعة ملايين أوروبي في مرتفعات جبال الأطلس»؛ انظر مقالة مارسيل ايميريت: «**فكرة الاستعمار عند الاشتراكية الفرنسية**»، في مجلة العصر الحديث «**لاج نوفو**» - رقم ٢٤، (١٩٤٧)، (ص ١٠٤).

(٤٢) لو «جلوب»، (١٨ نوفمبر/تشرين الثاني ١٨٣١)؛ مقالة بعنوان «**الجزائر: سياستها العامة**».

(٤٣) پلانا دي لافاي، «**ملحق لفكرة التخلي...**»، (ص ٦).

(٤٤) پلانا دي لافاي، «**ملحق لفكرة التخلي...**»، (ص ٨).

(٤٥) پلانا دي لافاي، «**في ضرورة التخلي...**»، (ص ١٥).

(٤٦) پلانا دي لافاي، «**ملحق لفكرة التخلي...**»، (ص ٧).

(٤٧) پلانا دي لافاي، «**في ضرورة التخلي...**»، (ص ١٥).

(٤٨) المصدر السابق.

(٤٩) للرجوع إلى بحث أكثر استفاضة للحركة المضادة للاستعمار بين سنتي ١٨٣٠ - و١٨٤٨، انظر رسالة مروان بحيري، «**الميول المضادة للاستعمار في فرنسا في فترة ملكية تموز: حالة الجزائر**»، وهي رسالة دكتوراه من منشورات جامعة برنستون سنة ١٩٧٣، واستقيت منها هذه الدراسة.